نقد المجتمع وأعرافه في الشعر الشفاهي النسوي بمنطقة سوف

الشاعرة " مريم عمّاري " نموذجا

للأستاذ : بشير غريب .جامعة الوادي .

1. الشاعرة في سطور :

الشاعرة مريم عمّاري من مواليد " 1902 " ، بحي الأعشاش . الوادي ، عاشت مراحل طفولتها بالأعشاش إلى أن تزوّجت من " لعبيدي بن عمر" بحاسي خليفة وعاشت هناك بحي " النزلة الشرقية " ، اشتهرت بأغانيها وأراجيزها التي تؤديها في كثير من المناسبات و الأفراح ، و ارتبطت كل أغانيها بواقعها الأسري الذي تحياه ، إذ كانت جلّ قصائدها الشفاهية تنظمها عن ابنها " محمد " ، هذا الذي أنجبته بعد ما أنجبت أربعة بنات قبله ، لذلك كانت أغلب أغانيها وقصائدها عن هذا الابن الذي ولد بعد انتظار طويل ، وظلّت تغنّي له في كل مراحل حياتها معه حتى بعد كبره و زواجه ، و الذي ميّز أراجيزها وقصائدها نبرة الدفاع و الصمود أمام الواقع و بعض الأعراف الاجتماعية التي رأت أنها تُظلم تحت تقبّلها وتهاجم أمام اعتراف المجتمع بها ، لذلك شحنت جل قصائدها ردودا عن هذا الواقع و نقدا للظروف الاجتماعية المنافية لقناعاتها .

نظمت الكثير من الأراجيز و شدى صوتها بها في الكثير من الأفراح المناسبات ولا زالت لحد اليوم بعض التسجيلات الصوتية بصوت الشاعرة بحوزة أبنائها ، توفيت سنة 1994 بحي المنظر الجميل . الوادي[1]

2. مظاهر نقد المجتمع في شعر " مريم عمّاري " :

ارتبط الشعر الشفاهي بالواقع ارتباطا شديدا ، حيث أنه يستمدّ أغلب موضوعاته و خصائصه الفنية منه ، وتتجلّى رؤى المجتمع في الكثير من القصائد الشفاهية الذي ينظمها الشاعر من خلال قبوله لواقع المجتمع أو رفضه ونقده له على حدّ سوى ، و كان للأم دورا هاما في بناء و تكوين هذه العلاقة، إذ كانت هي النواة الأولى لتربية الفرد و الطرف الموازي في علاقته بالمجتمع ونظرته له ، لذلك كان للأم الحضور الدائم في المشهد الشعري والواقع الغنائي في الذاكرة الجمعوية ، وعلى جميع مستويات التعبير الشفاهي ، و كما سبق ذكرنا أن أغلب قصائد الشاعرة " مريم عمّاري " كانت حول ابنها الأكبر " محمد بن عمر "، وبارتباطها الشديد بهذا الولد عبّرت في الكثير من الأحداث والظروف الاجتماعية عن هذا الترابط الفطري ، و برزت فيها الأم المدافعة عن واقع ابنها ، و الأم المعوّضة لمختلف ملامح الحرمان لهذا الابن، من خلال أشعارها المختلفة .

وعلى كثرة هذه الأحداث والنماذج اخترنا ثلاث نماذج شعرية لثلاث مواقف مختلفة زمنيا من حياة الشاعرة تظهر فيها رؤيتها النقدية لبعض أعراف المجتمع و بعض الممارسات الأسرية الخاطئة.

ـ أ ـ الموقف الأولّ (التكهّن بإنجاب الولد ، وافتراض واقع جديد بميلاده)

كان هذا إثر سماعها لبعض انتقادات النسوة و الجيران لها والحط من قيمتها من خلال قولهن بأن:" زوجها الذي أنجب ولدا من زوجته الأولى و طلّقها قد حرمه القدر من إنجاب ولد من مريم . الزوجة

الثانية . بسبب ذلك الطلاق وسيبقى ذلك الولد هو الأول والأخير من الذكور في عائلته ." و ردّا على ذلك كانت تغنيّ أثناء حملها الجديد بأرجوزة تحلم فيها بإنجاب ولد لتدحض أقاويل منتقديها .

يخلّص راسي يا مولايا ..... باش تَفرحْ أمي وابّايا .

تقول في البداية :

جايْباته لاني شَرّاطَة .... كان النِيّة و البراكة

و يْعايْرو فيّ بَنّاته .....و حبيب سيدي مولايا

الحمدوللّه مَنَّه جاباته .... فْرحنا كي صَدّه عدايا

—

جتني امّاجَعْ الشطيطة .....ومن قالها خايفه من ميته

و كي خدمت الخير لْقيته .....و نشالله يْصادِفْ ضنايا [2].

تبيّن هذه الأبيات مدى ثقة الشاعرة بالقضاء والقدر ، وأن الله يرزق من يشاء إناثا أو ذكورا ، لذلك فهي تستنكر هذه التأويلات المزاجية من قبل أولئك النسوة ، وتوضّح أن عمل الخير هو الذي يجازي به الله تعالى عبده في الدنيا ويرزقه ما يتمنّى في دنياه وآخرته ، وتستشرف واقعها الجديد مع ولدها إيمانا منها بقدرته تعالى وثقتها التامة بأنّه لا يخيّب رجاء عبده الطائع .

وتعبّر بعد هذا الاستشراف عن مواقف تحدّيها و إنكارها لمعتقدات المجتمع بتخيّل مشهد فرح ختان هذا الولد ، الذي سمّته محمد ، و رسم صورة الأم الفرحة بابنها و كسر منظومة العُرف الساري ضدّها :

ني قسمي مازال مدسوس .....و جبته ولاّلي مكروس

و خلخاله يجري في الحوش ..... و علاَّقَه عن خَدّه ضَوّايه

و جابوا الكتّان و الكبّوس ..... و يْطَهْروا حَمَّه نُنْصُب رايه

راي قمرة ضوت وسط الحوش ..... الزغْراتَة بْصُوتها دوّايه

و حْزيِّم و الحولي منقوش .....مَنّـه رقّاصة و غنّايه

ونْدير عِرْسي ما تْعكّوش .... و حتى كان قُلْتوا شَلْوايه

عايشة[3] حِفْلَت بالمَغَطُوس .....و يا المتفرّج هيّا هنايا[4]

هذه الأبيات توضّح مدى تمسكّها بقناعتها ، إذ كلّ ما زاد تصويرها لمشاهد الفرح يوم ختان ابنها زاد ذلك إثباتا لصحّة رأيها وبيّن قوّة موقفها تجاه هذا الحدث ، لذلك نرى في الأبيات توازيا بين مشهد الفرح ، وصورة الحق الواضحة ، فأغلب ماجاء في صدر الأبيات كان لمشهد الفرح ووصف لباس الولد وطقوس الأم المحتفلة بذلك ،(جابو الكتان والكبوس ، ندير عرسي ما تعكّوش ، حزيّم والحولي منقوش ...إلخ) ، ويقابلها في عجز الأبيات صور لمنتهى وضوح الحقيقة وتجلّي قدرته تعلى على صنع الفرح لعبده الطائع (يطهروا حمّه ننصب رايه ، منّة رقّاصة وغنّايه ، حتى كان قلتوا شلواية ، يا المتفرّج هيّا هنايا) ، كلها صور عبّرت عن سقف وضوح الحجّة ومنتهاها .

وتضيف في الأخير :

..... في شكبوني يتنبّر[5]

خلخاله في كْراعَه ينَقّزْ .....صباطة ضاوي لمـرايا

كِساوي جِديدة تُبْرُقْ .....لبْرانيسْ من ايدي نايا

ندق لحمّه جاي مْحَدّرْ .....و جايب عْميره شَكّايه

وكي نصلّي باش نْكبّر .....يا ربي تَقْبلْ دعايا

ننبّه فيك وانت تحضَرْ .....ني حَيَّة نَلْحَقْ لِمْنايه

.....

ني جِبتْ أربع بنتّه .....وين خلاص راسي اسْتَحْمَدْتَه

و حتى بْنيّات فيهن البُـركة ....و راني في دوله ونهايه

لا نِشَّحْلَطْ لا نِتْبكّى .....و لا النسوة نتشكى

عبد الخير يطلب ربّه ....قنوعة عطاني عن رضايا

ريتني نزغرتْ فوق القُبّه ..وفي السطح نُنْصُبْ الرّاية[6]

في هذه الأبيات تحوصل لنا الشاعرة رؤيتها وتوضّح بشكل عقلاني موقفها، إذ العبرة في سلامة المرأة ونجاتها لحظة المخاض و وقت الميلاد ،و أن القناعة هي موطن إيمان المرء الذي يقبل بكل ما رزقه المولى ، فكل ما عبّرت عنه في الأبيات الأخيرة تحمل نبرة القناعة و الرضا بقضاء الله و قدره (حتى بنيّات فيهن البركة ، راني في دوله ونهاية ، قنوعة عطاني عن رضايا ....إلخ) ومن خلال عرضها لموقف قناعتها حتى

بإنجاب البنات يوازي هذا البوح تعريض للمغالطات الشائعة و خطأ مخالفيها في النظرة ، و إشارة إلى الأحكام الخاطئة التي يطلقها المجتمع أو الجماعة المنافية لغاية الرضا والقناعة بحكم القدر و مشيئة الله .

ـ ب ـ الموقف الثاني (علاقة الأب الجافّة مع ولده الصغير) :

بعدما رزقت بحمد الله ولدا ، تظهر عقبة أخرى في مسيرة هذا الولد ، إذ يرى الجفاف التام من أبيه الذي يولي اهتماما بابنه الأكبر الذي أنجبه من زوجته الأولى و يقوده معه في كل خرجاته و تجوّلاته في سوق القرية آنذاك ، اعتقادا منه أن الابن الأكبر هو الأولى بالعناية وبالاحتكاك بالمجتمع والآخر يبقى مع أمّه المنشغلة بفكّ خيوط الصوف أمام المنسج ويطلب منه مساعدتها في ذلك ، هذا ما جعلها تنظم أرجوزتها ردّا على طريقة التعامل مع ابنه الأصغر و تستنكر تجاهله له .فتقول :

هيا وليّ يا غالي .....وابّاك قالك أخطاني

المطلع يوحي لنا بمكانة الولد وقيمته الغالية عند أمّه إذ تعرض المقارنة بين مكانته عند والده وعندها ، قصد شدّ الانتباه وتهيئة الولد لقبول حجاج الأم و موقفها تجاه تصرّف الوالد ، وتضيف :

هيّا ولّي يا وِنيسْ .....وابّاك قالك ما تِمْشيشْ

وإقعد حلّ الكعابيشْ ....باش تثورلي نسواني

...

يعايرو فيها مَنّه .....حمّه رْباية أمّهْ

كي لحق سيده وعمّه ....سحَّتَه قاله أخطاني

لا غلاه يكمّل عنّه ....ولا غلاه تجّدّاني

كي تجّداني نتفكرْ ....وين للنزلة نبطّلْ

كي تحسس عني و تْعَزرقْ ....بكري ضايق من مشياني . [7]

هنا تظهر رؤى الأم الناقدة التي ترى في بقاء ولدها بالبيت خطر على تربيته وتكوينه كرجل مستقبل ، إذ كل الأشغال المنزلية هي من مهام النساء لا الرجال وبقاءه يضرّه ،هذا وتعرّض بمكانه الشاغر وسط جمع الرجال الذين يتواصل معهم أبوه ، ثم تعرض بعض الأضرار النفسية الأخرى التي قد تعقّد الولد إذ تصوّر له حالته البائسة أمام انتقاد الناس له إذ أنه لصيق أمّه (حمّه رباية أمّه) .

ثم تفتح للولد باب الأمل وتصبّره على تحمّل هذا التصرّف من أبيه ،و تقنعه بأن وقت كبره يستطيع أن يذهب لكل مكان دون أن يستطيع الأب ردّه عن ذلك لأنه كبر ونضج وأصبح متحرّرا من سلطته .

و تضيف لكلّ هذا انتقادها لأماكن تجوّل أبيه كي تبدّد قلق الولد و تقزّم شغف الولد باتباع والده

وعليه نلحظ قوةّ الحجة تزيد وتضاعف حين تقول :

إدّي علّلي يحسّسْ .....يحسابها حوانيت ترصّصْ

لا فيها لماكل اللّي تْسَفّه .....ولا فيها ما شاهي بالي

عالسوق اللي يصفّرْ ..... بْحال حوش بْلا امّالي

إدّي عاللي ضاقْ ..... بِحْسابْ روحَه سوق الواذْ

الفول حافل في زْقاقْ ....و التاي و القَزَانْ حامي

عن ساحة ما بين أهوادْ ..... بامّالي الخربْقَة داوي [8]

تصوّر ذلك المكان كأنه ساحة فارغة لا يوجد فيها ما يشفي غليل هذا الولد ، وتضع الولد موضع اختيار أمام ما تعرضه له من وصف مشهد سوق مدينة الوادي . نظرا لنشأتها وتربيتها هناك . وبين ما يحرم منه عند افتراض ذهابه لسوق النزلة الشرقية ، انطلاقا من هذا التصوير فهي تؤثث حجّتها بمجموعة من القناعات والحجج و الأحكام المصوّبة لهذا التصرّف وفي المقابل تصويرها لسوق القرية البائس (السوق اللي يصفّر ، ساحة مابين أهواد . بامالي الخربقة داوي) هو تعبير آخر عن غياب الحجّة الموازية و انعدام معالم الحق أثناء تجاهل الأب لإبنه ،كما هو تبيين أيضا لمستوى اتساع الهوة الواسعة بين الأب

و ولده وتعريض لمظاهر الحرمان التي يعانيها هذا الولد .

ـ ج ـ الموقف الثالث (سفر الولد ومعيشة الاغتراب بفرنسا) :

يغترب هذا الابن في فرنسا ويعيش هناك لمدّة معتبرة كباقي الشباب الجزائريين الذي يستقرّون هناك بحثا عن فرص العمل ، ويطول اشتياق الشاعرة لولدها ولا تجد سوى نظم القصائد المغنّاة مجالا للاستئناس و وتبديد حرائق الشوق المستمرّة ، من هذه الأغاني ما تنقد به أفكار المجتمع واعتقادهم في طائر الزاغ (التبّيب في الموروث الشعبي) و" الاسم الإغريقي للزاغ cornille تقريبا مع إسم الحورية كوروني ، والزاغ نوع من الغراب ، "[9] و حسب الموروث الشعبي أن هذا الطائر يستبشر به الإخبار عن قدوم شخص

غائب وعودة المسافر والمغترب إلى أهله ، ومنذ القدم يعتبر الزاغ والغراب في الثقافات القديمة أنه مشارك على الأخير بفكرة الرسول ، وهو من زمن غير طويل يرمز للنظام البريدي العالمي "[10] وبقيت آثار هذا الإعتقاد في الكثير من المجتمعات المختلفة ، و جرت العادة في المجتمع منطقة سوف أن يكون تغريد هذا الطائر على جدار المنازل طقسا مبشرا بقدوم المسافر المغترب لذلك المنزل ، لكن هذا الطير لم يوفّق تغريده فوق جدار بيت الشاعرة ، فتخاطبه :

تِكْذب عنّي واه يا طيرْ .....وين تْجيني نْقلّك خيرْ

من البداية الشاعرة تعرض المغالطة التي يمارسها هذا الطير في كل تغريداته المسموعة بالمنزل ، فهي بذلك تبطل وتستنكر هذا الاعتقاد والعرف المبالغ فيه ، إذ تطلق هذا الحكم (الكذب) كأقصى حجّة تدحض رؤى المجتمع له ، و تثبت ذلك استنادا من تجربتها الخاصة (وين تجيني نقلّك خير) ، كما ترى بأن قدومه هو مجرّد تشكّل جديد لملامح الغربة و مضارب الشوق المختلفة وتبيّن ذلك حين تقول :

جاني يلالي .....و يْعيَّطْ من مَرْقَبْ عالي

علاش شَغْشَبَتْلي حالي .....تْفكّرنا كي كنّا ناسيينْ

جاني الفجريـة ..... و بْصوتـه يْنادي عَلَيَّ

قالي جيت للزّكّوريـة[11] ....و انت اولادِكْ مش جاييـنْ [12]

وكأنها تجعل من هذا الطير رمزا للغربة والغياب ، عكس ما يعتقد فيه المجتمع استشرافهم بقدوم مغترببيهم وآمالهم بلقياهم ، لذلك فهي تخاطب فيه الغربة الحارقة ، وتهاجم في محاورته صراعات اشتياقها لولدها ، (علاش شغشبتلي حالي ... تفكرنا كي كنّا ناسيين) فوجوده هو زيادة في حرقة الانتظار وآلام الحرمان

، و كأنها تريد القول أن عدم قدومه كان أفضل ، رغم أنّ المشهد الذي تصوّره كان موحيا في البداية بأمل اللقاء و خبر قدوم الولد ، إذا ما استنطقنا دلالات العبارات التالية (جاني الفجرية ، يعيّط من مرقب عالي ، جاني يلالي) فالفجر أولى ملامح الإشراق وبناء الأمل ، والعلو هو موضع تبيان الحقيقة وتوضيحها ، لكن يكسر أفق الانتظار في العبارة الأخيرة (وانت أولادك مش جايين) ، لذلك نلاحظ مظاهر انفعال وردّة فعل موازية في أبيات أخرى كأنها تقابل خيبة الأمل بصرف النظر عن هذا الاعتقاد الخاطئ إجمالا فتقول :

أبيض يلمّعْ ....صوتَه من لَبْعادْ يسمّعْ

يا ريتك في كُوزْ[13] مْشَمَّعْ ....ما تِعرفْشي روحَكْ وينْ [14]

فالأم هنا تحاول أن تشكّل لنا صورة جديدة لحجم الشوق المستمر بداخلها (من لبعاد ، ابيض يلمّع) ، وتطرح مقابل هذا الشوق أملها بلقاء ولدها إذا ما غيّب صوت هذا الطير ، وكأنّ كل تغريداته كانت إثباتا للفراق والابتعاد و لذلك فهي ترى في غاييه (الطير) أكثر أمل وحظ ، عكس المعتقد المعروف .

هكذا أعطت الأم الشاعرة رؤيتها الاجتماعية وبيّنت صورتها للمجتمع الذي شحنت قصائدها نقده وطرحت همومه ومتابعه وعرضها لمظاهر الحرمان والاحتياج على مستويات عدّة، روحية ،و ماديّة ، لذلك فهذه المواقف نراها من ضمن النماذج الشعرية الموضحة لنقد الشاعر الشفاهي للمجتمع ، وتعبيره الخاص عن آلامه و احتياجاته ، رغم ما يظهر في أراجيز الشاعرات خاصة من ضعف على مستوى الصياغة الشعرية و قلة في الأدوات الفنيّة المشكّلة لخصائص النص الشعري المكتمل (الوزن ، وحدة الروي والقافية ، نظام اللغة ...إلخ) ، نظرا لخصوصية هذا الفن الشفاهي (الأرجوزة النسوية) و لصليقة الشاعر الشفاهي عامة ، لكن نلمح في هذه المدوّنة الشفاهية البسيطة رصدا لمشاهد ومواقف

اجتماعية وتعبيرا مختلفا عن واقع شغل هذه الأم الشاعرة وجعلته موضوع بوحها وغنائها و أسست وفقه رؤى نقدية متعددة وتصوّرات مختلفة لثقافة المجتمع وذهنية أفراده المتنوّعة .

---

[1] لقاء مع السيد " محمد السعيد بن عمر " ابن الشاعرة مريم عمّاري .

[2] في لقاء مع الحاجة " الزهرة بن عمر " البنت الكبرى للشاعرة مريم عماري .

[3] ـ عائشة ، عمّة الولد . وحسب الرواية أنها الوحيدة التي كانت تأمل لها إنجاب ولد . والمغطوس هو إحدى ألبسة الأعراس النسوية في ذلك الوقت ، لباس للزينة .

[4] المصدر السابق

[5] صدر البيت غير موجود ومنسي عند راوية الأبيات .ـ المورّد .

[6] المصدر السابق .

[7] تسجيل صوتي بصوت الشاعرة مريم عمّاري .

[8] المصدر السابق

[9] الرموز في الفن ـ الأديان والحياة ،

[10] المصدر نفسه . ص نفسها

[11] ـ الزكورية ، يبدو أنها إحدى جارات الشاعرة

[12] لقاء مع الحاجة " زهرة بن عمر " ابنة الشاعرة

[13] ـ الكوز ، علبة إسطوانية تصنع من الحديد ، عادة ما كان يوضع فيه التوابل ، أو البن . فالشاعرة وظّفته كلفظة موحية بضيق الفضاء والسجن الذي تتمناه لهذا الطير .

[14] المصدر السابق .